

البَابُ الثَّانِي

الأصمى الراوية

الفصل الأول

رواية اللغة

رواية اللغة - آثار الأصمعي - التعريف ببعض هذه الآثار

كانت تنتهى رواية اللغة في عصر الأصمعي إلى رجالها الثلاثة : أبي زيد الأنصاري ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ؛ واشتهر كل واحد منهم في ناحية ، وعبر عن ذلك المبرد فقال :

(كان أبو زيد أعلم من الأصمعي في النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من الأصمعي بالأنساب والأخبار ، وكان الأصمعي بجرّاً في اللغة لا يُعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية وكان دون أبي زيد في النحو) (١) :

أما في ناحية الكم فيقول ابن رشيق : كان الأصمعي يتكلم في ثلث اللغة ؛ لأنه كان يُضَيِّق ولا يَجِيز إلا أصح اللغات ويلج في دفع ما سواه (٢) : ذلك أن بعض علماء اللغة قد وقفوا عند حد السماع يلتمون به ولا يَجِيزون غير اللغة التي وَعَتْها أسماعُهم ، وكان على رأس هذا الفريق أبو عمرو بن العلاء أستاذ الأصمعي : فقد كان أشد تسليماً للعرب (٣) وأكثر اطمئناناً إلى القدامى منهم : عبر عن ذلك الأصمعي فقال : جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي - ويردد أمام المُحدثين وإن أعجب بشعرهم ، وكان يعتبرهم مؤلّدين بالإضافة إلى القدامى .

حمل الأصمعي لواء هذا المذهب بعد وفاة أبي عمرو ، وأشار ابن جني إلى موقف متشدد

(١) إنباء الرواة ٢ : ٢٠١ .

(٢) الصلدة ٢ : ٥٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٥ .

من مواقف الأصمعي في الباب الذي عقده في كتاب الخصائص عن قياس اسم المكان والمصدر على وزن المفعول في الرباعي فقال : (قال أبو حاتم : قرأت على الأصمعي في جيمية العجاج :

جَاباً تَرَى بَلِيَّتَهُ مُسَحَّجاً^(٤) .

فقال : تليته (أى عنقه) فقلت بليته ، قال : هذا لا يكون ، فقلت : أخبرني به من سمعه من فلق في روبة^(٥) : أعنى أبا زيد الأنصاري ، فقال : هذا لا يكون ، فقلت : جعله مصدراً أى تسحيجاً ، فقال : هذا لا يكون ، فقلت : فقد قال جرير :

ألم تعلم مسرّحي القوافي فلا عيًّا بين ولا اجتلابا
أى تسريحى ، فكأنه أراد أن يدفعه ، فقلت له : فقد قال الله عز وجل : (ومزقناهم كل ممزق) فأملك^(٦) .

كانت الدراسة اللغوية تجري بأقصى نشاطها عند أصحاب القياس ، والأصمعي قانع برأيه ، وبالالتزام بالسماع عن العرب وكأنه أراد بطالب اللغة أن يعرف مفرداتها وصيغها عن طريق السماع وحده ، وفي رأينا أن مذهب السماع كان من الممكن أن يكفي به لو أن اللغة كانت لأهلها فحسب ، أما وقد غزت العربية تلك الأقطار التي دخلها الإسلام ، فكان القياس هو السبيل لمعرفة العربية لتعذر جمعها واستقصائها على سبيل الحصر . لهذا - رأى بعض الرواة - وقد لاحظوا أن أوجه النشاط الفكرى أخذ يستعين بالقياس في تذليل قضاياهم - رأوا أن يفيدوا من هذا في تبويب اللغة تحت كليات عامة بالرغم مما بها من تراكم تنفر من القياس ، ومن الدوافع التي ألزمتهم هذا المسلك أن كثرة كائنة من طلاب اللغة كانوا من الموالى ، أو ممن ليسوا عرباً بالأصالة والعربى ، فكان لابد من وضع اللغة تحت كليات مقيسة ؛ ليسهل تناولها .

بدأ هذا المذهب عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، وكان ممن يشارك في علوم القرآن ، واللغة ، والنحو ، يصفه ابن سلام بأنه أول من بعج النحو ومد القياس والعلل^(٧) ؛ ولكن

(٤) الجأب : حار الوحش - الليت : صفحة العنق - التسحيج : الخدش .

(٥) فلق القم : منفرج القم .

(٦) الخصائص ١ : ٣٦٧ .

(٧) طبقات فحول الشعراء ١٤ .

هذه الدعوة - شأن كل جديد - وجدت معارضةً من بعض علماء اللغة كأبي عمرو ، والأصمعي ، ومن بعض الأعراب والشعراء الذين وقفوا يسخرون من ابن أبي إسحق ، كان ابن أبي إسحق يعيب على الفرزدق بعض ما جاء في شعره مما لا يجرى على سنن العربية في مقاييسها المطردة ، ويسأله بعد أن سمع منه :

وعضّ زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مُسَحَّتًا أو مجلّفً
على أي شيء ترفع مجلف ؟ فيقول له الفرزدق : على ما يسووك وينووك^(٨) ويتعمد حين
يهجوه ألا يجرى هذا الهجاء على طريقة العربية المطردة فيقول :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا
فلا يحيه عبد الله بهجاء مقابل ، وإنما يعيه أن خرج على العربية ، فيقول له : لقد لحنت
أيضاً في قولك مولى مواليا ، وكان ينبغي أن تقول : مولى موال^(٩) ولاحظ الفرزدق أن أكثر ما
يغضب له الخضرى إنما هو سماع شيء يجرى على غير القياس مما يعقد مهمته ، فكان الفرزدق
يلغز بالآيات ويأمر بالقائها عليه^(١٠) ، ويستند في مسلكه هذا إلى أنه عربى خالص العروبة ،
وأن عليه أن يقول وعلى الآخرين أن يقعدوا ! .

وكان رؤية وأبوه ممن يلغزون في رجزهم ، فيوقعان أصحاب القياس في الحيرة والتردد ،
ولا يرى القياسيون بداً من اتهامها : ذكر ذلك ابن جني فقال : كان قدماء أصحابنا يتعقبون
رؤية وأباه ويقولون : تهضماً اللغة وولّداها وتصرفاً فيها غير تصرف الأفعاح فيها^(١١) وقال
السيوطى في الاقتراح : إن رؤية وأباه كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها^(١٢) .

ولكن سرعان ما استجاب لهذا المذهب بعض علماء اللغة كعيسى بن عمر الثقفى ،
والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبى زيد الأنصارى ، وصادف هوى في نفوس
المجددين كيشار بن برد الشاعر ، وكان من أصحاب النزعة العقلية وأحد المتكلمين ، ويصفه
الجاحظ بأنه من المطوعين أصحاب الإبداع والاختراع^(١٣) فقام اللغة ، وتصرف فيها ،

(٨) الخصائص ٣ : ٢٩٨ .

(٩) نزهة الألبا ٢٥ .

(١٢) الاقتراح ٢٨ .

(٩) نزهة الألبا ٢٤ .

(١٣) الأغاني ٣ : ١٤٥ .

(١٠) الخصائص ١ : ٣٦٩ .

وأتى بألفاظ وتراكيب لم تسمع عن العرب ، وكان من عادته كما يحكى أبو الفرج أن يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بأشياء لا حقيقة لها^(١٤) : لاحظ بشار أن العرب تستعمل (فَعَلَى) في قولهم (جمزى) للدلالة على السرعة فقياس على ذلك وقال :
والآن أقصر عن سمية باطل وأشار بالوجللى على مُشِيرُ
وأنشد أيضاً :

على الغزلى منى السلام فرما لهُوتُ بها فى ظل مخضلة زهر
ولم يسمع عن العرب وجلى ولا غزلى ! وأخذ الأخفش يعيبه على هذا المسلك ويقول :
ليس هذا مما يقاس وإنما يعمل فيه السَّاع^(١٥) .

كان القياس يتسع على هذه الصورة ، والأصمى ينفرد عن الآخرين ولا يجز القياس ،
وكثيراً ما كان يتفق أبو عبيدة وأبو زيد فى شيء يقيسانه ويتوقف الأصمى ، بل لم يكن يروى
إلا عن عرى خالص العروبة لا يخالط لسانه فسادٌ : يقول أبو حاتم السجستاني : سألت
الأصمى : أتقول فى التهديد أبرق وأرعد ؟ فقال : لا ، ولست أقول ذلك إلا أن أرى البرق
وأسمع الرعد ، قلت : لقد قال الكيت الشاعر :

أبرق وأرعد يا يزيد م فا وعيدك لى بضائر
قال : الكيت جرمقانى من أهل الموصل ليس بحجة ، ولكن الحجة هو الذى يقول :
إذا جاوزت من ذات عرق ثنية فقل لأبى قابوس ما شئت فارعد
وهو شاعر جاهل ، وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله قال أبو حاتم : فأيت أبا زيد
الأنصارى ، وقلت له كيف تقول من البرق والرعد فعلت السماء قال : رعدت وبرقت . قلت
فمن التهديد ؟ قال : رعد وبرق - وأرعد وأبرق ، فأجاز اللغتين ولم يجز الأصمى إلا لغة
واحدة .

هذا الموقف الذى وقفه الأصمى ، وأجاز فيه لغة واحدة - لا يشير إلى ضعف الرواية
الأخرى ، وإنما يوحى بأن الأصمى لم يسمعه من عرى خالص العروبة ، ولا بغير من صحة
الرواية ألا تكون انتهت إلى سمع الأصمى ، وإنما هو التشدد والوقوف عند حد السماع
وحده : فلقد جاء أعرابى محرم فأراد أبو حاتم السجستاني أن يسأله ، فقال له أبو زيد : دعنى

(١٤) الأغنى ٣ : ١٦٣ .

(١٥) الموشح ٢٤٦ .

فأنا أعرف بسؤاله ، فقال : يا أعرابي ، كيف تقول : رعدت السماء وبرقت ، أو أرعدت وأبرقت ؟ فقال : رعدت وبرقت ، فقال أبو زيد : فكيف تقول للرجل من هذا ؟ فقال : أمن الجخيف تريد ؟ (بمعنى التَّهْدَد) ، قال نعم ؛ فقال : أقول رعد وبرق ، وأرعد وأبرق ^(١٦) .

وذكرنا شيئاً عن تخرج الأصمعي أمام قذاسة القرآن والحديث لا يفسرهما ، وإنما كان يكتب بقوله : العرب تقول في معنى هذا .. كذا ولا أدري ما المراد منه في الكتاب والسنة والآن نرى هذا المسلك أيضاً في بعض الألفاظ التي ليست من القرآن ، ولا يجد غضاضة من التصريح بقوله : لا أعرف هذا ، أو لا أدري هذا فكان يقول : ما أدري ما الحور في العين ولا أعرف للصوت الذي يحىء من بطن الدابة اسماً ، قال : والمصحاة إناء ولا أدري من أى شيء هو ؟ قال : ولا أدري لِمَ سمي سام أبرص ^(١٧) وسئل عن عنجول فقال : دابة لم أقف على حقيقته وقال أبو حاتم : قلت للأصمعي مم اشتقاق هصان وهصبص قال : لا أدري وقال : لا أدري مم اشتقاق جيهان وجهينة وأرأسه أسماء رجال من العرب ^(١٨) هذا بالرغم من معرفته لمعنى الحور في الحيوان فقد سئل عن الحور فقال : أن تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ، ولا حور في الإنسان ولا ندرى كيف أن الأصمعي لا يرى الحور وصفاً للإنسان كما لا ندرى تعليله لما جاء في القرآن في وصف أهل الجنة في قوله تعالى : (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) . إلا أن يكون هذا الوصف في الإنسان على سبيل المجاز في رأى الأصمعي .

ويبدو أن الأصمعي قد لاحظ المغالاة في مذهب القياس ، وإفراطهم في التفريع عليه وفلسفته ، فكان هو على الجانب الآخر يمثل رد الفعل في المغالاة وعلى درجة موازية من التشدد . ولو اقتنعنا برفضه لرواية الكميت على أنه ساكن الجرامقة من أهل الموصل - فإننا لا نفتنح بالسهولة نفسها والاطمئنان نفسه لرفضه رواية العجاج في جيميته ، ولا رواية جرير ، ولا في سكوته عندما سمع قوله تعالى : (ومزقناهم كل ممزق) في سياق الكلام عن المصدر

(١٦) أمالي القفال ١ : ٩٦ ، ٩٧ ط دار الكتب .

(١٧) المصحاة : إناء يشرب فيه ، وسام أبرص : الوزغة .

(١٨) الزهر : ٢ : ٣١٧ .

الرباعي واسم المكان^(١٩) .

وإذا كان الأصمعي يقف عند حد السماع ، ويتشدد فيه ، ولا يروى اللفظ إلا أن يسمعه من عربي خالص العروبة - كان من حقهم أن يقولوا : إن الأصمعي يتحدث في ثلث اللغة !

آثار الأصمعي :

ذكر صاحب الفهرست ثبوتاً بمؤلفات الأصمعي لم يبق منها بأيدينا إلا القليل ، ولاحظنا أن الكتب القديمة التي كتبها من جاء بعد الأصمعي تعتمد اعتماداً ملحوظاً على كتبه ، ومن النادر أن تقرأ في كتاب قديم دون أن تلمح فيه آثار الأصمعي إذا كان هذا الكتاب قد عرض للغة أو الشعر أو مرويات الأعراب ، وفيما يلي ما نسب إلى الأصمعي من الكتب كما جاءت في كتاب ابن النديم :

خلق الإنسان	الأجناس	الأنواء
الصفات	الأواب ^(٢١)	الميسر والقдах
خلق الفرس	الخيل	الإبل
الشاء	الأخبية والبيوت	الوحوش
الأوقات	فعل وأفعل	الأمثال ^(٢٢)
الأضداد	الألفاظ	السلاح
اللغات	الاشتقاق	النوادر
أصول الكلام	القلب والإبدال	جزيرة العرب
الدلو	الرحل	معاني الشعر
المصادر	القصائد الست	الأراجيز
النحلة ^(٢٣)	النبات والشجر	الحجراج

(١٩) الخصائص ١ : ٣٦٧ .

(٢٠) في كشف الظنون (المعز وتحفيها) .

(٢١) ورد في خزنة الأدب باسم (الأواب) انظر الخزانة ٤ : ٢٠٠ .

(٢٢) انظر ترجمة محمد بن إبراهيم بن حبيب في بغية الوعاة ص ٤ .

(٢٣) في كشف الظنون النحل والعسل .

ما اتفق لفظه واختلف معناه غريب الحديث^(٢٤) السرج واللجام

غريب الحديث والكلام الوحشي مياه العرب النسب
الأصوات المذكر والمؤنث أسماء الحمر
ما تكلم به العرب فكثرت في أقوال الناس

ثم ذيل ابن النديم هذا الثبوت بعبارة يقول فيها : إن الأصمعي عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها .

وحين تكلم ابن النديم عن الكتب التي ألفت حول لغات القرآن ذكر كتاباً للأصمعي باسم (لغات القرآن)^(٢٥) ، وأشار جورجى زيدان إلى كتاب للأصمعي باسم رجز العجاج دون أن يذكر مصدره في ذلك ، وذكر القفطى في إنباه الرواة حين ترجم لأحمد بن محمد الخرزنجي البشنى - أن البشنى ألف كتاباً أسماه التكملة ، وأثبت المصادر التي اعتمد عليها ومن بينها كتاب في (السق والموارد) نسبة للأصمعي^(٢٦) ، كما أطلعنا على كتاب للأصمعي باسم فحولة الشعراء سنعرف به ، وذكر ابن يعيش في شرح المفصل كتاباً في (ما يلحن فيه العامة) نسبة إلى الأصمعي^(٢٧) .

ويبدو أن ابن النديم لم يحرص كتب الأصمعي على جهة الاستقصاء ، وإنما اكتفى بما حضره ووصل إلى سمعه منها ، وبين أيدينا نقل عن الأصمعي نقله أحمد بن فارس بسنده عن أبي عبيد القاسم بن سلام بعنوان (باب الاسمين المصطلحين) يقول الأصمعي : (إذا كان أخوان أو صاحبان وكان أحدهما أشهر من الآخر سميا جميعاً باسم الأشهر) قال الشاعر :
ألا من مبلغ الحرين عنى مغلفة وخص بها أيا
وأحدهما هو (الحمر) وكذلك الزهدمان والتعلبتان . والزهدمان أخوان اسم أحدهما (زهدم) والآخر (كردم) قال قيس بن زهير :

جزانى الزهدمان جزاء سوء وكنت المرء أجزى بالكرامة

(٢٤) يقول ابن النديم : رايته بخط السكرى نحو مائتى ورقة .

(٢٥) الفهرست ٥٣ ط الرحمانية .

(٢٦) إنباه الرواة ١ : ١٠٨ .

(٢٧) شرح المفصل لابن يعيش : ١ : ٨ .

ومن ذلك (الدحرضان) وهما ماء ان اسم أحدهما (دحرض) والآخر (وشيع) قال
عنبرة :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم
ويكون ذلك في الألقاب كقولهم لقيس ومعاوية ابني مالك بن حنظلة (الكردوسان)
ولعبس وذيان (الأجران) (٢٨) .

قال ابن فارس : وذكر (أى أبو عبيد) الأبواب بطولها ، وإنما نذكر من كل شيء رسماً
لشهرته ، وتشير هذه الجملة الأخيرة إلى أن النقل كان قليلاً من كثير مما يرجع أن أبا عبيد اعتمد
على كتاب الأصمعي في هذا الباب .

وفي سبيل الحديث عن آثار الأصمعي سنأخذ في تصنيفها في وحدات متشابهة الغرض
هذه أشهرها :

أولاً : رواية الأصمعي اللغوية مما استخلصه من شعر العرب وما سمعه من الأعراب ،
وكان هذا في مقدمة ما اشتهر به ، يثبت ذلك النظر في عناوين الكتب التي وصلتنا منسوبة
إليه ، فأكبر طائفة منها كانت مصنفات تستهدف جمع اللغة بحسب الموضوعات ككتاب خلق
الإنسان ، والحيل ، والوحوش ، والإبل ، والشاه ، والأنواء إلى غير ذلك من الكتب التي
رأيناها فيما بعد مدونة في مجموعات كالغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ومبادئ
اللغة للإسكافي ، وفقه اللغة للثعالبي ، والمخصص لابن سيدة .

ثانياً : نرى بعد ذلك كتباً عامة يتبين منها أن الأصمعي لم يعمل كراوية لغة فحسب ،
وإنما كمصنف ويبحث في اللغة ، ومن هذه الكتب : كتاب المقصور والمدود ، وكتاب
الهمز ، والمذكر والمؤنث ، والقلب والإبدال إلى غير ذلك .

ثالثاً : هناك نوع آخر من الكتب نرى الأصمعي فيها يطرق اللغة والغريب لاكمرويات ،
وإنما كما وردت في نصوص مكتوبة مستقرة في صميم التراث الأدبي للعرب ، ومن هذه
الكتب : كتاب معاني الشعر ، والقصائد الست ، وكتاب غريب الحديث ، والأراجيز ... ثم
مجاميع الشعر التي عرفت باسم الأصمعيات .

الموجود من كتب الأصمعي :

منذ وجدت المطبعة أخذت المخطوطات سبيلها إليها على أيدي علماء مشاركة ومستشرقين
عنوا بنشر الآثار القديمة ، وقد بذل الدكتور أوجست هفتر جهداً مشكوراً في إحياء آثار
الأصمعي ، فنشر الكثير منها ، ونحن نعرف بما تيسر لنا الوقوف عليه من هذه الكتب :

كتاب خلق الإنسان :

طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٠٣ ضمن كتاب الكثر اللغوي ، وتناول أسماء
الإنسان في أطواره المختلفة مذ كان في بطن أمه حتى استوى بشراً ، واستفتح الأصمعي كتابه
بالمرأة وقد حملت فقال : (يقال للمرأة في أول ما تحمل قد نسأت ، وهي نسيء ، فإن
اشتت على حملها فهي وحى ، ويكون نقطة أربعين يوماً ، وعلقة مثلها ، ومضغة
مثلها فإذا استبان الحمل فيها قيل لكل من استبان حملها قد أرأت ، وهي مرء إلا ما كان
من الحافر والسباع فإنه يقال لها : ألمت ، وهي ملمع) .

وكتاب الأصمعي أمثل ما كتب في هذا الموضوع تنظيماً إذا قارناه بكتب معاصريه . فبعد
أن تكلم عن الأطوار الأولى للجنين - تناول صفة الإنسان وأسماء أعضائه ، بدأ بالرأس وانتهى
عند الأقدام ، ثم عرض للنواحي الخلقية والخلقية ، وعالج في الكتاب بعض القضايا اللغوية
كالذكر والمؤنث ومشتقات الألفاظ من الأفعال والمصادر ، ولهذا بقى الكتاب مرجعاً للباحثين
والكاتبين في هذا الموضوع . فأبو على القالي يذكر أوصاف الإنسان في كتاب الأمالى منسوبة
إلى الأصمعي (٢٩) ، وأبو إسحق الزجاج يعتمد اعتماداً يكاد يكون تاماً على كتاب الأصمعي
إذ حذف بعض ما جاء فيه من الشواهد ، وما لاحظته من تكرار ، وزاد عليه بعض الشيء من
عنده ، واقتبس من الأصمعي أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الغريب المصنف ، وكان
الفرق بين الزجاج وابن سلام أن الأخير عالج في كتابه بعض المواد . وظهر فيها تصرفه ، ونحن
نعلم أن ابن سلام جمع إلى علم الأصمعي علم أبي عبيدة وأبي زيد في محاولة لجمع آثار
البصريين .

وكانت طريقة التأليف وغزارة الشواهد والاستطراد اتساعاً مكن لمن جاء بعده أن يستعين

بهذا الكتاب ، كلُّ يجد فيه مادته لغوية أو موضوعية ، كما نجد ابن سيدة ، قد بدأ كتابه المخصص بخلق الإنسان واعتمد فيه اعتماداً ملحوظاً على كتاب الأصمعي ، واستغرق هذا الموضوع في كتاب ابن سيدة كل الجزء الأول ومعظم الجزء الثاني .

ومن الذين كتبوا في خلق الإنسان أبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابي . وأبو عمرو الشيباني ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زيد الأنصاري ، والمفضل بن سلمة ، وأبو حاتم السجستاني ، وابن قتيبة ، وأبو إسحق الزجاج وكثير من علماء القرن الثالث والرابع .

كتاب فحولة الشعراء :

حقق هذا الكتاب الأستاذان محمد خفاجي ، وطه الزيني ، والكتاب مسالة بين أبي حاتم السجستاني ، والأصمعي يتضمن رأى الأخير في قدامى الشعراء ، وإجابات الأصمعي قصيرة مقتضبة لا ترقى إلى درجة التحليل والنقد القائم على التعليل : يسأله أبو حاتم : أى الناس طراً أشعر ؟ فيقول : النابغة ، قال أبو حاتم : تقدم عليه أحداً ؟ فيقول الأصمعي : لا ، ثم يعرض للشعراء فلا يزيد في وصف الشاعر عن كونه فحلاً أو ليس بفحل ، ويقول في هذا : (الأعشى : أعشى قيس بن ثعلبة ليس بفحل ، وعلقمة بن عبدة فحل ، والحارث بن حلزة فحل ، وعمرو بن كلثوم ليس بفحل ، والمسيب بن علس فحل ، والشماع فحل) فإن علق على أحدهم لم يسترسل ، ولم يعلل لفحولته أو نبى الفحولته عنه إلا في كلمات قليلة معدودة ، فقد سئل عن مُزرد فقال : ليس بدون الشماع ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس .

وأورد صاحب الموشح مثل هذه المناقشة عن الأصمعي وأبي حاتم ، فإذا استحثه أبو حاتم على التوسع في الرأى والتعليل له ، وموضع المفاضلة فإنه كان يشير إلى الشاعر المقل على أنه غير فحل كالذى يذكره عن الخويدرة إذ يقول : لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته العينية كان فحلاً ، ومثل هذا الحكم يقوله أيضاً عن ثعلبة بن صعيبر المازني ، ومعمر بن جمار الباري ، فلما سئل عن أوس بن مغراء الهجيمي - ويبدو أنه كان مقلأ - قال : لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول .

وهو كذلك قصير العبارة في مقارنته بين شاعر وشاعر : فقد سئل : من أشعر : الراعي أم

ابن مقبل ؟ قال : ما أقربها فلما ألح عليه أبو حاتم وأبدى له أن هذا الحكم لا يقنعه قال :
الراعى أشبه شعراً بالقديم وبالأول . .

والأصمعى يستجيد أحياناً قصيدة واحدة أو بعض القصائد للشاعر ، فيعده من الفحول
عند هذه القصائد وحدها ؛ كما يقول وقد سئل عن كعب بن سعد الغنوى : ليس من الفحول
إلا فى المراثية ؛ فإنه ليس فى الدنيا مثلها .

أما شعراء الحرب فإنه يطلق عليهم اسم الفرسان وكأنها تقابل كلمة الفحول ، ولا يجمع بين
الفارس والفعال : فقد سئل عن زيد الخيل فقال : هو من الفرسان ؛ وعن عمرو بن
معديكرب قال : من الفرسان ؛ وعن خفاف بن ندبة ، وعن عنترة ، والزيقران بن بدر قال :
هؤلاء أشعر الفرسان ؛ فلما سئل عن سليك بن السلكة قال : ليس من الفحول ولا من
الفرسان (٣٠) .

ويبدو أن كلمة الفحل على أنها مرتبة للشاعر الكبير لم تكن قبل الأصمعى ، ولم نجدها
كتعبير لهذا المعنى الذى أراداه عند من سبقه من علماء الشعر حتى كأنها إحدى تعبيرات
الأصمعى التى ابتكرها ، وقد ضاق أبو حاتم بهذا التعبير المقتضب فسأله عن معنى الفحل
فأجابته : إن للفحل مزية على غيره كمزية الفحل على الحقائق ، وأحاله على بيت جرير :
وابن اللبون إذا مالز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس (٣١)
وإذا اعتبرنا ما جاء فى هذا الكتاب صورة من صور النقد الأدبى فإن كتاب الأصمعى
يكون باكورة لهذا اللون من التأليف . وإن الأصمعى وضع كتابه هذا فى بداية حياته
العلمية . يدلك على ذلك ما رأيناه فى نصوص أخرى بلغ فيها الأصمعى مبلغاً أسمى فى مجال
النقد الأدبى سنشير إليها بعد قليل .

كتاب الدارات :

نشر هذا الكتاب المستشرق رودلف جاير عن نسخة بدار الكتب بالقاهرة ، ثم نشره للمرة
الثانية الأستاذ أوجست هفنز ، وهو كتيب يُعرف فيه صاحبه بالدارات التى يجزيرة العرب ،
والدارة كما يعرفها أبو سعيد هى ما اتسع من الأرض وأحاطت به الجبال فى غلظ أو سهل .

(٣٠) الموشح ٨١ .

(٣١) المصدر السابق ٤٩ .

يقال : دار ، ودارة ، وأدور ، ودارات ، وبدأ الكتاب كما يلي :
(دارات العرب المعروفة في بلدانهم وأشعارهم ست عشرة دارة ، فن ذلك دارة وشجى
وأنشد :

ولست بناس موقفاً أن وقفته بدارة وشجى ما عمرت سلماً
وظل على هذا النمط ، يذكر الدارة ويحتج لاسمها بيت من الشعر أو الرجز حتى بلغ بها
ست عشرة دارة .

والكتاب على هذه الصورة من التأليف لا يعدو أن يكون رسالة قصيرة مقتضبة تتضمن
أسماء الدارات والاستشهاد لها بأبيات الشعر والرجز .

وللأصمعي معرفة بمعالم الجزيرة : دروبها وجبالها وشعابها ومياها إلى غير ذلك أدته إلى
معرفة رحلاته ومروياته من الآثار الأدبية أيضاً ، وله تأليف يحمل اسم جزيرة العرب أظنه
يستهدف هذه المعالم ، وكتابه عن الدارات استكمال لها ، إلا أنه لم يحدد أماكنها الجغرافية إلا
ما يدركه القارئ من الاحتجاج لاسم الدارة بالشعر والرجز إن تضمن البيت إشارة إلى ذلك
ولعلك أدركت إحساسه باللغة الذي يسيطر على ذهنه في كل ما يرويه : فهو يذكر لك أنواع
الجموع لهذه اللفظة بعد التعريف بها فهي دار ودارة ، وأدور ودارات إلى غير ذلك .
روى هذا الكتاب تلميذه أبو حاتم السجستاني ، وحيث عرف : ما الدارة ؟ وعرف
مصدر الأصمعي في الإفادة بها ، واعتاده في ذلك على الآثار الأدبية ذكر دارة أخرى لم
يذكرها الأصمعي وأشار إلى ذلك بقوله : (ومن غير كتاب أبي سعيد دارة موضوع ، قال
الحصين بن الحمام المري :

جزى الله أفناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقاً ومأثماً

كتاب الشاء :

جاء كتاب الشاء في روايتين . إحداهما عن أبي حاتم . والأخرى عن أبي إسحق
الزبادي : تحدث الأصمعي عن حملها فقال : الوقت الجيد في الشاة أن تخل سبعة أشهر بعد
ولادها ، فيكون حملها خمسة أشهر ، فتضع في كل سنة مرة ، فإن أعجلت عن هذا الوقت
حتى يحمل عليها مرتين في السنة فذلك (الإمغال) يقال : أمغل بنو فلان ، وهم مغلون ،

والشاء ممغل ، ويقال : أمغلت المرأة فهي ممغل إذا حملت بعد طهرها من النفاس ، قال القطامي :

بيضاء مخطوطة المتنين بهكئة ربا الروادف لم تمغل بأولاد

ثم يتحدث عن الشاء عندما تطلب الفحل ، والعلامات التي تدل على الحمل وهي أن تدجو شعرتها ، وتستقبض خاصرتها ، ويحشف حياؤها (تستقبض : تنتفخ لتبين ، تدجو : تحسن وتصفو) والحياء من الشاء والمعز والناقة ومن ذوات الحافر الطيبة ، ومن كل سبع الثفر . ويتحدث عن ضرعها عندما يشرف ويقع فيه اللبأ ، وعندما يكثر لحم هذا الضرع ، ثم لا يأخذ نفسه بذلك التنظيم الذي التزمه في كتاب خلق الإنسان ، ولا يأخذ الأعضاء بترتيبها ، فبعد أن تحدث عن قرنيتها عرج على صفاتها فقال : (شاة راجن وهي تكون في البيوت ليست من الرواعي ، وبعض العرب يقول : راجنة ود اجنة) ثم يعود إلى وصف أسنانها ، ثم يعدد أمراض الشاة (فيقال للشاة إذا خرج بها الجدرى : ما موهه ، والاسم الأمية وهو جدرى الغنم ، والنقاص داء يأخذ الغنم فتحرق أكبادها وتسود) .

وعندما يشير إلى أنواع الشاء يقول : (ومن الغنم النقد وهو شاة صغار الأجسام قصار الآذان ، وصفوها أجود الصوف وألينه وأقله مسكا لأن مراعيها رقيقة النبات لينة ، ويقال في جمع النقد نقاد) .

كتاب الخيل :

طبع كتاب الخيل للأصمعي في فينا سنة ١٨٨٨ م ، ثم أعيد طبعه سنة ١٨٩٥ م بعناية الدكتور أوجست هفتر ، وكانت اللغة تحتل جزءا كبيرا فيه ، يقول في أوله : الفرس واحد الخيل ، والجمع أفراس الذكر في ذلك والأنثى سواء ؛ ثم يفصل الكلام في عناصر نشير إلى أهمها فيما يلي :

ما يستحب من الخيل :

قال : يستحب من الفرس أن يطول بطنه ، ويقصر ظهره ويشرق حجبتاه (٣٢) ويشرق

(٣٢) الحجبة : رأس الورك ، والحجبتان من الفرس ما أشرف على صفاق البطن من وركيه اللسان مادة ح ج ب .

منسجه^(٢٣) ، وتعرض أوظفة رجليه ، وتحذب أوظفة يديه ، ويرق زوره وهو الصدر ، وتعظم بركته والبركة بما فيها من لحم وعظم هي ما استقبلك من صدر الفرس ، قال الجعدي :

ولوح ذراعين في بركة إلى جوجؤ رهل المنكب... إلى آخره

ما يكره في الخيل :

ذكر الأصمعي ما يعيب الخيل فنها : عظم الزور ، وقصر القضيب ، وغلظ العنق ، واضطراب الأذنين ، وطول الشعرة ، وكثرة لحم المتن^(٢٤) وقصر الضلع ، وطول العسيب ، وضيق الجلد على الكتف ، وضيقه على العضد ، وغلظ الذفري ، والجحظة ، وكثرة لحم الوجه ...

مشى الخيل وعدوها :

من المشى العنق وهو أول المشى ، والتوقص وهو أن يترو نزواً ويقرقط ، ويقال مَرَبَّوَقَصَ به فرسه ، ومن المشى الدالآن وهو مشى يقارب فيه الخطو كأنه مثقل من حمل ، ومنها الدالآن وهو مَرَّ خفيف سريع . يقال مرفسه يذال ذالآنا ، ومنه الذئب يسمى ذؤالة لحفة مرة .

ألوان الخيل :

وتكلم في ألوان الخيل فذكر منها الكتة ، والحمة ، وهو أحب الألوان إلى العرب مع الحوة ، والكتة حمرة تلخلها قنوء ، يقال : اكمت بكمت اكمتانا ؛ ومنها الصفر ، يقال : فرس أصفر ، وفرس صفراء ؛ والحوة وهي الخفزة التي تضرب إلى السواد . ومن ألوانه الوردية وهي في الخيل الدغم وهو قليل من الألوان ، وهو أن يكون وجهه يضرب إلى السواد^(٢٥) . والأصمعي له معرفة بالخيل ، وأحد الذين يرجع إلى روايتهم في هذا السياق : ذكر صاحب العقد أسماء السوابق من الخيل للأصمعي مع اختلاف في الرأي بينه وبين أبي

(٢٣) منسج الدابة ما بين العرف وموضع اليد .

(٢٤) الثتان لحمتان معصوبتان بينهما صلب الظهر .

(٢٥) الدغم أن يضرب وجهه إلى السواد مخالفاً سائر جسده .

عبدة^(٣٦) ، وذكر السيوطي حديثاً عن الخيل دار بين الأصمعي وأبي عبدة في حضرة الفضل ابن الربيع تبين منه أن الأصمعي كان أوعى من زميله معرفة بأعضاء الخيل وأسمائها^(٣٧) . وجاء في الأمل في نص طويل في ست صفحات أورد فيه الأصمعي عشرين اسماً من أسماء الطير في وصف الفرس في قصيدة لجرير بن عطية الخطمي^(٣٨) . ثم لم تقف هذه المعرفة عند حد اللغة والمعرفة بالأسماء ، فكان أيضاً يعرف مشاهير الخيل عند العرب فيقول :

الوجيه ، ولاحق ، والغراب ، وسبل وهي أم أعوج كانت لغني ، وأعوج كان لبني آكل المرار ، ثم صار لبني هلال بن عامر ، وجروة فرس شداد بن عمرو أبي عترة ، ومياس ، وهداج لباهلة لبني أعياء قالت الحارثية :

شقيق وحرمي هراقاً دماءنا وفارس هداج أشاب النواصيا
والكلب فرس رجل من بني عامر أو غطفان . وقرزل : فرس الطفيل أبي عامر بن الطفيل ، وذو الحمار : فرس مالك بن نويرة ، والجوب فرس أرقم بن نويرة ، وذات النسوع : فرس بسطام بن قيس ، والنعام : فرس للحارث بن عباد ، وولدت النعام الشيط وهو لبني سدوس ، وكان لحرز بن لوذان وفيه يقول :

لا تذكرى مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر
والمتمطر : فرس حيان بن مرة ، وكامل : فرس الحوفزان ، وخلاب ، وقيد لبني تغلب ، ومخالس لبني عقيل ، واليحموم والدوفو للنعمان بن المنذر ، والعصا : فرس جذيمة الأبرش ، وفي بني تغلب فرس يقال له العصا فارسه الأخنس بن شهاب ، والهطال : لزيد الخيل ، والنحام لرجل يقال له السليك بن سلكة السعدي ، وداحس لقيس بن زهير ، والغبراء لحذيفة بن بدر الذبياني^(٣٩) .

وللأصمعي في أخبار الخيل قصة عجيبة يرويها ويهتم بدقاتها ، من ذلك قوله :
الحرون بن الأثافي بن الحزير بن ذى الصوفة بن أعوج فرس مسلم بن عمرو الباهلي في الإسلام ، وكان قد اشتراه من أعرابي بالبصرة بألف درهم معارضة بمتاع فسبق الناس

(٣٦) العقد ١ : ٢٠٨ .

(٣٧) بغية الوعاة ٣٠٤ .

(٣٨) الأمل ١ : ٢٠٠ .

(٣٩) ذيل الأمل ١٨٤ .

عليه عشرين سنة ، وكان يسبق الخيل ، ثم يحرن حتى تلحقه الخيل ، فإذا لحقته سبقها ثم حرن ، ثم سبقها . وكان الحجاج قد بعث بابين له (أى للفرس) يقال له البطان إلى الوليد بن عبد الملك ، فصوره لمحمد ابنه ، وولد البطان البطين ، وولد البطين الذائد ، وكان هشام بن عبد الملك يشتهي أن يسبق الذائد ، فأتوه بفرس بربرى يقال له المكاتب بعد ما حطم الذائد وسبق أيضاً عشرين سنة^(٤٠) .

ولقد أعانته معرفته بأسماء الخيل وأنسابها وأخبارها على درك الشعر ومعانيه ، وكان هذا الوجه يتمم ما عني به الأصمعي من رواية الشعر واللغة ، سمع قول امرئ القيس :

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف متشر

فقال : إذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً ، والحديد الاعتدال كما قال عبيد :

مُضَبَّرٌ خَلَقَهَا تَضْبِيرًا يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِهَا السَّبَبُ^(٤١)

وكان من حقه وهو على هذا القدر من المعرفة أن يخرج بعض الشعراء من عداد الفحول حين يعرضون لوصف الفرس فكان يقول : لم يكن النابغة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل ، ولكن طفيل الغنوى في صفة الخيل غاية النعت^(٤٢) .

لم يعرض الأصمعي لهذه التفاصيل في كتابه ، واكتفى فيه بالأسماء والمفردات التي ذكرنا طرفاً منها ، فخرج كتابه في صفحات قليلة إذا ما قورن بكتاب أبي عبيدة في الخيل حتى لقد وقع في روعي أن ما وصلنا من كتاب الأصمعي يمثل جزءاً منه ، وليس الكتاب كله . وكتاب أبي عبيدة يمتاز بتبويب منظم ، قدم له بمقدمة طويلة ومقال عن مكانة الفرس في حياة الأعرابي ، ومكّن للمتن بشواهد كثيرة من الشعر والرجز ، كما ذيل بمقطعات وقصائد في وصف الخيل^(٤٣) ، فتضاعفت صفحات الكتاب وفضله الدكتور كرنكوى على كتاب الأصمعي في مقال ذيل به كتاب أبي عبيدة .

ولأهمية الفرس في حياة البدوى كما وضحها أبو عبيدة في مقدمة كتابه نجد كثيراً من العلماء

(٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤١) الموشع ٣٥ .

(٤٢) الموشع ٤١ .

(٤٣) الجزء الأخير من كتاب الخيل لأبي عبيدة .

يتناولونه في كتيبات منفردة أو ضمن مجموعات نذكر منهم : النضر بن شميل ، وقطرب بن المستنير ، وابن الأعرابي ، وأبا نصر أحمد بن حاتم ، وعمرو بن أبي عمرو الشيباني .

كتاب الإبل :

نشره الأستاذ الدكتور أوجست هفتر في ليبزج سنة ١٩٠٥ م ، وأعيد طبعه في بيروت ضمن مجلد أطلق عليه (الكثر اللغوي) .

جاء الكتاب في روايتين :

إحداهما : عن أبي حاتم السجستاني .

والأخرى : عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أخي الأصمعي ، وعرف هفتر بالروائتين . ونشر كل واحدة منفردة ، ومادة الكتابين تكاد تتشابه إلا من زيادات في رواية أبي حاتم واختلاف في ترتيب العناصر ، وسنعرّف بالكتاب الذي رواه أبو حاتم وهو ينفي بالغرض إذا كان القصد بيان طريقة الأصمعي .

قال أبو حاتم : قال أبو سعيد : أجود وقت يحمل فيه على الناقة أن تُجَمَّ سنة ويحمل عليها فيقال : قد أضربت الفحل وأضرها الفحل ، فإذا حمل عليها في كل عام فذلك (الكشاف) : يقال : ناقة كشوف ، وقد أكشف بنو فلان العام فهم مكشفون إذا لقحت إبلهم على ذلك الوجه ، وإذا لقحت الناقة عراضاً من الفحل (والعراض أن يعارضها الفحل فيتوخها فيضربها) فذلك الضراب يسمى العراض ، ويقال : لقحت الناقة يعارة ، قال الراعي :

نجائب لا يَلْقَحْنَ إلا يعارة عراضاً ولا يشربن إلا غواليبا^(٤٤)
وانتقل إلى الكلام عن حمل الناقة فقال : ... فإذا استبان قيل قد قرحت تقرح قروحاً ، فإذا ثبت اللقاح فهي خلقة حتى تبلغ عشرة ، وحينئذ تسمى عشاء ، وقد عشرت ، وهي إبل عشار ، فإذا حالت قيل : ناقة حائل

ثم يعرض لما يصيب الناقة من أمراض في أشهر الحمل ويذكر علاجها ، وبعدها يسمى الوليد حتى يكبر ، فهو ابن مخاض ، فلا يزال كذلك يجوز في الصدقة ، حتى إذا وضعت أمه وصار لها لبن من غيره فهو ابن لبون ، ويظل على هذه التسمية سنة فإذا استحقت أمه حملاً

(٤٤) قال الأصمعي : إن الظرماع سمع هذا البيت من الراعي ، فسرقه وعمل على متواله .

آخر بعد الأول فهو حق ، فإذا أتت عليه سنة بعد حق فهو جذع ... إلى غير ذلك .
ثم يصف الناقة بعد الوضع : (فإذا عطففت على الولد فدرت عليه فهي ظثور ... فإذا
بركت الناقة على بول أوندى أو أصابتها عين فتعقد لبنها في ضرعها فخرج اللبن خائراً متقطعاً
كأنه قطع الأوتار وسائر اللبن ماء أصفر رقيق - قيل : قد أضرطت ناقة فلان فهي مخرط ،
وهن نوق مخرط ، ولبنها المخرط) .

ويسمى سنّام البعير : السنّام ، والشرف . والذروة ، والقمة ، والقحدة ، والهودة .
ويعقد فصلاً في عدد الإبل : فالذود ما بين ثلاث إلى عشر ، وفي الأمثال : الذود إلى
الذود إبل ؛ والصرمة قطعة خفيفة قليلة ما بين العشر إلى بضع عشرة ، والصبّة^(٤٥) فوق
ذلك ، وهي بين العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين ؛ والعكرة : الخمسون إلى الستين إلى
السبعين ؛ والمهجمة المائة وما دأها .

وتكلم عن أدواء الإبل « جمع داء » ثم عن أنواع السير : فهو العنق إذا كان فيسيحاً ،
والمسيطر ، فإذا ارتفع عن العنق قليلاً قيل : هو يمشى التريد ؛ فإذا ارتفع بعد ذلك فهو
الذميل ثم الرتل .

ومن أظماء الإبل : الظلم ، وهو ما بين الشريتين ، فإذا شربت كل يوم فهي رافهة .
وأصحابها مرفهون . قال : إبل فلان ترد رافها .

ومن أصواتها البغام ، فإذا ضجت فهو الرفاء ، فإذا طربت في إثر ولدها قيل : حنت .
على هذا النحو يسير الأصمعي في كتابه ، يجمع الأسماء التي تدور حول الإبل ، ويورد
عليها شواهد من الشعر والرجز .

كتاب الفرق :

نشره الدكتور دافيد هنريخ مولر في فينا سنة ١٨٧١ م ، وقد اتجه فيه الأصمعي إلى تسمية
الأعضاء ، وفرّق بين اسمها في الإنسان واسمها في سائر البهائم ، ثم عقب على ذلك ببيان
الفروق بين مسميات شتى فالشفافة . جمع شفة وهما الشفتان . والمشفر من البعير وهما المشفران ،
والجمع المشافر ، والظفر هو ظفر الإنسان وجمعه أظفار وأظفر وأظافر ، وقد يجوز الظفر لكل
شيء ومن قول زهير بن أبي سلمى :

(٤٥) في المخط (السبة) .

لدى أسد شاكى السلاح مقاذف له لبد أظفاره لم تقلم
والأنف أدنى العدد والجمع أنوف ، وهو المعطس ، والجمع المعاطس ، ويقال : أرغم الله
معطسه ، وهو المرسن أيضاً ، والجمع المراسن قال العجاج :

وفاحماً ومرسناً مسرجاً

والرجل للإنسان ، والجمع الأرجل ، والحافر من الفرس في موضع القدم من الإنسان
والجمع الخوافر - والخف من البعير والجمع أخفاف .

وتحدث عن الصدر والفرج والثدى على هذا النمط ... ثم عن المخاط والبصاق والعرق .
فيقال : عرق الإنسان عرقاً ، وهو النجد أيضاً يقال : نجد الإنسان ينجد نجداً قال الشاعر :
فقمتم مقاماً خائفاً من يقم به من الناس إلا ذا الجلالة ينجد
والصواح من ذى الحافر . قال الشاعر :

جلبنا الحيل داميةً كلاها يسيل على سناكبها الصواح
ويقال له الحميم ، ويقال : عصيم العرق وهو أثره إذا جف .

ثم تكلم بعد ذلك عن الجلوس ، والتغوط ، والغلمة ، والنكاح ، والحمل والولادة .
وفى أسماء الأولاد يقول : يقال الغلام والجارية ويقال لولد الدابة المهر والجمع مهار
ومهارة - وجمع مهرة مهرٌ قال الشاعر :

عن حوض يساقطن المها والمُهر

ويقال لولد الحمار الجحش ، والأنثى جحشة والجمع الجحاش - والفلو ولد الفرس إذا
فطم ويقال لولد الشاة السخل والبهيم ، والواحدة سخله وبهيمه .

ومن أسماء الجماعات : يقال جماعة من الناس ، وقطيع من البقر والغنم ، وسرب من
الظباء والنساء ويحوز السرب أيضاً في الطير والجمع سروب ، والأجل : القطيع من البقر ،
والعانة : القطيع من حمر الوحش . ويقال ذود من الإبل لما بين الثلاث إلى العشر ، ويقال
للمائة من كل شيء هجمة ، والصرمة القليل ، يقال رجل مصرم إذا كانت له صرمة ، والكور
القطيع من الإبل والبقر والجمع الأكوار ، ويقال : حوط من الغنم .

ومن الأصوات : يقال صهل الفرس يصهل صهيلاً . وحمحم حمحمة وذلك إذا طلب
الشعير ، ونهى الحمار وشحج البغل يشحج شحيجاً وشحاجاً . ويقال : رغا البعير يرغو رغاء .

وهذر يهذر هديرًا إذا هاج ، ويقال للناقة إذا مدت صوتها في إثر ولدها : قد حنَّت حنينًا إلى غير ذلك .

ومن أصوات الطير : ححرر البازي ، والصقّر صرصر صرصرة ونعق الغراب ونعب .
قال رؤية :

لا يلتوى من عاطس ولا نعيق

ومن أصوات السباع : زأر الأسد ، ووعوع الذئب وضغًا^(٤٦) يضغو ضغاء قال الشاعر :
كأن خضيفه بطن الجواد وعوعة الذئب في القفد^(٤٧)

كتاب النبات والشجر :

نشره أوجست هفتر سنة ١٨٦٩ م وأعيد نشره ضمن مجموعة سميت (البلغة في شذور اللغة) رواه أبو حاتم السجستاني^(٤٨) .

في هذا الكتاب وجهة جديدة يتجه إليها الأصمعي ومعه عدته من اللغة ، فيصف الأرض المعدّة للزراعة ، فيسميها قبل وبعد نزول المطر ، وعنلما ينبت النبات على وجهها فيقول : يقال : رأيت أرض بني فلان غب المطر وأعدة حسنة إذا رُجِيَ خيرها ؛ ويقال : وشمّت الأرض إذا رأيت فيها شيئاً من النبات وأنشد :

كم من كعاب كالمهاة الموشم^(٤٩)

وينشد المرشمة أيضًا ، وأرشمّت الأرض ، والموشم التي قد نبت لها وشم من النبات ، أى شيء يرمى فيه ويقال : أبشرت الأرض إذا حسن طلوع نبتها إشاراً

ويأخذ في وصف النبت نفسه : فإذا امتلأت به الأرض فهو نبت عميم ، والنبت مكتهل ومعتم ، فإذا اشتد خصاص النبت قيل : قد استك استكاكا ؛ فإذا خرج زهره قيل : قد جن جنونا ؛ فإذا طال وتم قيل : قد استأسد ؛ وإذا تهيأ النبت للليس أقطر ، واقطّر (بتشديد

(٤٦) الأصل في الضغور الاستخذاء ، ضغا يضغو ضغواً ، وضفا الذئب والسنور والعلب يضغو ضغواً وضغاء : صوت وصاح ، وكذلك الكلب والحية ، ثم كثر حتى قيل للإنسان إذا ضرب فاستغاث اللسان مادة ض غ ا .

(٤٧) خضف بها يخضف خضفًا (يسكون الضاد) وخضفًا (يفتحها) وخضافًا إذا ضرط . اللسان .

(٤٨) جاء في مقدمة ناشر الجمهرة أن أبا القاسم عمر بن محمد بن سيف روى عن ابن دريد كتاب النبات للأصمعي

الجمهرة ١ : ٦ .

(٤٩) المهاة الموشم : القزاة المبرقشة .

الراء) اقطاراً ؛ فإذا يبس فقد تصوّح تصوّحاً وانصاح انصاحاً ويقال ليابس النبات وحطامه : السفير ؛ لأن الريح تسفره ومن ذكور النبات القراص (بتشديد الراء) والخزامى والأفحوان ومن غير الذكور المبشر^(٥٠) ومن الحمض الرمث والدغل والقلام .

ثم تكلم عن النبات ينبت في السهل فنه : العرفج ، والتّعص (بتشديد النون وضمها) .
وما ينبت في الحجاز الأرنبة ، والرقلة ، والوشيج ، والعيشوم ، وما ينبت في الرمل :
الآلاء والأقلى .

وما ينبت في جبال نجد : الثغام والحماض
وفي كثير من هذه الأسماء كان يقلب الكلمة على أوجهها من الاشتقاق اللغوي .

كتاب النخل :

لا يحمل هذا الكتاب اسم الأصمعي صراحة ، وهو مروي عن أبي حاتم السجستاني ، ولما كان أبو حاتم يروي عن الأصمعي كما يروي عن أبي عبيدة فإن أوجست هفتر الذي نشر الكتاب ينسبه للأصمعي على جهة التغليب ولا سيما أن اللسان يروي جل مفرداته منسوبة للأصمعي .

عرض صاحب الكتاب لأسماء النخل في أوضاعه المختلفة ، وفي أطواره المتعددة ، ولما كانت النخلة عن نواة ، أو منقولة ، فإنه يذكرها متى ظهرت من النواة ، فالجثيث هو أول ما يطلع من أمه ، والودي هو صغار النخل ، وإذا كانت الفسيلة غير مستأرضة فهي الراكب . وأخذ في تسمية النخلة منذ بدأت . فيقال للفسيلة إذا أخرجت قلبها : قد أنسفت ، وهو يفرق بين التسمية في الحجاز وبينها في نجد : فهي العواهن في الحجاز ، وهي الخواف في نجد . وأصول السعف الكرانيف ، والعريض التي تبيس فتصير مثل الكف هي الكربة ، وشحمة النخلة هي الجبار

ثم يتقل إلى حمل النخلة : فالمهتجة تلك التي تحمل وهي صغيرة ، فإن حملت سنة ولم تحمل أخرى قيل : قد عاومت وسأنت (من العام والسنة) . فإذا كثرت حملها قيل : قد حشكت

(٥٠) المبشر : نبات رغو على رأسه برشومة (اللسان) .

ثم يسمى الثمار فيقول عن التمر : السياب إذا انعقد الطلع ؛ فإذا اخضر واستدار فهو الجدال في لغة أهل نجد ، فإذا عظم فهو البسر ، فإذا صارت فيه خطوط وطرانق فهو المخطم ، فإذا صارت إلى الحمرة قيل : أزهى النخل ؛ فإذا بدت فيه نقط من الإرتاب قيل : قد وكت ؛ فإذا أتاها التوكيت من قبل ذنبها قيل : ذنبت ؛ فإذا دخل كلها الإرتاب وهي صلبة فهي جمسة

والمؤلف يسلك في تأليفه سلوكاً رتيباً كهذا الذى رأيناه في كتاب خلق الإنسان . فبعد أن ذكر النخلة فور إعداد الأرض لها - تابع أطوار نموها . فذكر الثمار ، وأسماءه ، ثم تحدث عن أمراض النخل فقال :

إذا أنسخت النخلة عن عفن وسواد قيل : قد أصابها الدمال ؛ وإذا لم تقبل النخلة اللقاح ، وإذا لم يكن للبسر نوى قيل : قد صأصأت النخلة . والتأليف على هذه الصورة لا يخالف طريقة الأصمعى مما يجعلنا في طمأنينة حين ينسب الكتاب إليه . وفي أدب الكاتب عرض ابن قتيبة للكلام عن النخلة ، فتلمح الروح نفسها في التأليف الذى لا يكاد يتغير إلا بما يشعر القارئ بأن ابن قتيبة قد تصرف قليلاً في النقل ، انظره يقول : (.... الكروانة أصل السعفة التى تبيس ، وجمعها كرايف ، والكربة التى تبيس فتصير مثل الكتف ، والجريد والعصب السعف ، والودى الفسيل واحدها ودية ، وأول حمل النخل الطلع ، فإذا انشق فهو الضحك ، وهو الإبريض ثم البلع ثم السياب ثم الجدال إذا استدار واخضر قبل أن يشتد ، ثم البسر إذا عظم ، ثم الزهو إذا احمر ، يقال أزهى يزهى فإذا بدت فيه نقط من الإرتاب فهو الموكت ، فإن كان ذلك من قبل الذنب فهي مذنبه وهو التذنوب ، فإذا لانت فهي نعدة ، فإذا بلغ الإرتاب نصفها فهي مجزعة ، فإذا بلغ ثلثها فهي حلقانة ، فإذا عمها الإرتاب فهي منسبة)^(٥١) إلى آخر ما جاء في كتاب ابن قتيبة ، ونكاد نقطع بأن ابن قتيبة اطلع على كتاب الأصمعى ونظر فيه ، وأفاد منه ، يدلك على ذلك هذه العبارات التى تتشابه حرفياً وعبارات الأصمعى .

كتاب الكرم :

يطالعنا في هذا الكتاب شيء جديد هو العلم بالناحية الفنية الزراعية ، وما أحسب ذلك

(٥١) أدب الكاتب ٣٨ ، ٣٩ ط الاتحاد الأحرى ١٣٢٨ هـ .

من علم الأصمعي ، ويروى الكتاب أبو حاتم السجستاني فيقول : قال الطائي : (٥٢) يقال لشجر العنب : الكرّم ، والحبل ، الواحدة كرمة وحبل ، فإذا غرست الحبل أخذت ثلاث نواجم طول كل نامية ثلاثة أشبار . ثم تحفر حفرة قدر ذراع فثنى النواجم في الأرض وتترك منها عشرين عينين ، ويقال للعيون الابن ثم تكبس عليها التراب وتترك لها حوضاً ثم تسقيها طوف القصب (أى قدر ما يسقى القصب) (٥٣) .

ثم يدخل في كلام لغوى أشبه بكلام الأصمعي فيقول : (فإذا بدت عيونه قيل : قد صوف ، فإذا رأيت فيه الطلع قلت : أزمع ، فإذا التقي قلت استظل ، وإذا انفتحت عناقبده قلت : نفص ، قال : ويقال : عنقود وعنقاد ، فإذا فرغ من نفصه قيل : حثرو فصل ، فإذا كبر حبه شيئاً قيل : قد غصن ، وقد أغصن ، فإذا رأيت في الحب الماء قلت : قد أرق) .

قال أبو حاتم : وقال غير الطائي وهذه عبارة تشير إلى أن أبا حاتم كان يجمع كل ما يقال حول هذا الموضوع لا يكتفى فيه بعلم الأصمعي الذى لم نر له ذكراً للآن ، وإنما يروى عن الطائي وغير الطائي ، ولا نكاد نقلب صفحات الكتاب حتى نرى أبا حاتم يروى عن (غير الطائيين) .

ويقابلنا الأصمعي حين يتناول ضروب العنب فيقول :
(أجود العنب الأبيض : أطراف العذارى ، والضروع ، وهما متقاربان كل واحد يشبه صاحبه والأسود الغريب وهو أرقه وأجوده ، والنواجم ، والنواسى ، والخشبي . وعيون البقر ، والنواسى الشامى ، والدوالى ، والملاحى وينشد للأصمعي قوله :
ومن تعاجيب خلق الله غاطية يعصر منها ملاحى وغريب (٥٤)
هنا ذكر الأصمعي صراحة لغرض لغوى هو التدليل على تخفيف لام ملاحى ، ثم يعقب على ذلك بجديث لأنس ، ونفطويه حول تخفيف وتشديد اللام من ملاحى .
ويروى عن الأصمعي أيضاً فوائد لغوية حول اسم من أسماء الخمر هو المشعشة فيقول :

(٥٢) لا أدري من الطائي ؟ هل هو رجل بعينه ، أو رجل من الطائف وكانت مشهورة بالعنب

(٥٣) كتاب النخل والكرم ٧٣ .

(٥٤) الكرم ٨٥ .

قال الأصمعي : (كل شيء مزج فأرق مزجه فهو مشعشع ، ورجل شعشاع الجسم) (٥٥)
 وأنشد للأصمعي شعراً في سياق الاحتجاج لهذه الأسماء : فن ذلك الخرطوم . قال
 الأصمعي : أول ما يخرج من الدن إذا بزل وأنشد للعجاج .
 صهباء خرطوماً عقاراً قرقفاً

وأنشد :

جادت لها من ذوات القار مبرعة كلفاء ينحت من خرطومها المدر
 وهكذا يفرد للأصمعي من وقت لآخر إذا كان الحديث يتعلق بشيء من اللغة .
 والرأي عندي أن الكتاب لأبي حاتم السجستاني استقى مادته من الطائفيين ومن الأصمعي
 ومن غير الأصمعي . ثم تعرض الكتاب بعد ذلك لعمل الوراقين الذين كانوا يزيدون شروحاً
 على الكتب اعتقاداً منهم أن ذلك مما يفيد البحث : يدل ذلك على هذا تلك المناقشة بين أنس
 ونفطويه حول تخفيف اللام وتشديدها من كلمة (ملاحى) وهما يتأخران عن كل من
 الأصمعي وأبي حاتم . أما نسبة الكتاب للأصمعي - على طريقة نسبة الجزء للكل فلائن
 الأصمعي كان يتبوأ في عالم الرواية مكانة مرموقة تتفق معه سوق الكتاب المادية .

كتاب فعلت وأفعلت :

كان جزء من عناية الرواة ينصرف إلى التعريف بالصيغ المختلفة . وخاصة تلك التي لم يطردها
 فيها القياس ، ومن كتب الأصمعي كتاب فعلت وأفعلت :
 روى هذا الكتاب أبو حاتم السجستاني فيقول : سألت الأصمعي حرفاً حرفاً ، قال :
 يقول أكثر العرب : كنت الدر والجارية وكل شيء ضُثته - فأنا أكُثها . وأنا كان . وهي
 مكنونة . وكذلك كل شيء في معنى الصَّوْن .
 وأُكنت الحديث والشيء في نفسى إذا أخفيتته وهو مُكَنٌّ . وفي القرآن قول الله عز وجل :
 (كانهم للؤلؤ مكنون) من كنت . وقال تبارك وتعالى في موضع آخر : (أو أكننتم في
 أنفسكم) وقال جل شأنه : (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) .
 وسمعت أبا زيد (الحديث لأبي حاتم) يقول : أهل نجد يقولون : أكننت اللؤلؤ والجارية
 فهي مُكَنَّة - وكننت الحديث - وكلُّ صواب .

هذه الإضافة التي أشار إليها أبو حاتم من كلام أبي زيد تكشف لك عن وجهين . الأول : ما كان يمتنع إليه الرواة من إضافة ما يروونه مفيداً - والآخر : بيان الفرق بين الرجلين : إذا كان الأصمعي يلتزم بصيغة فعلت في الفعل (كَنَّ) إذا كان المقصود بذلك الحفظ والصون ، لأنه سمع أكثر العرب تقول هذا ، أما صيغة أفعلت فتستعمل حين يريد القائل إخفاء الشيء في النفس ، وجاء رأى أبي زيد مخالفاً لهذا إذ جَوَزَ كُنْتُ ، وأكُنْتُ في معنى الحفظ ، وفي معنى إخفاء الشيء في النفس ، لأنه سمع ذلك من أهل نجد .

- ومن بعض التفاصيل التي ذكرها الأصمعي في (فعلت وأفعلت) قوله :
- يقال : صمت القوم ، ولا يقال أصمتوا إلا أن تقول أَصْمَتُوا غَيْرَهُمْ .
 - يقال سلك فلان الطريق ، وأسلك فلان الطريق - أسلكه حمله على أن يسلك .
 - طلعت الجبل ليس غير ذلك ، ولا يقال أطلعته .
 - يقال جز شعره ، وأجز بشعره إذا حان أن يجز ، ومعناها مختلف ، إلى غير ذلك .

كتاب الأضداد :

رأيناه في مجموعة أعدها أوجست هفتر تشتمل على كتاب للأصمعي وثان لأبي حاتم السجستاني ، وثالث لابن السكيت ، ورابع للحسن بن محمد بن الحسن الصغاني - وكلها في الأضداد .

والكتاب يبحث في الألفاظ التي يصح استعمالها على وجهين مختلفين ، ولا تكاد تصفح الكتاب المنسوب للأصمعي في الأضداد وتطمئن إلى طريقتة وأسلوبه حين يورد اللفظ ويشرحه على وجوهه المختلفة ويحتج له بالشعر والرجز ، أو بإسناد الرواية إلى أستاذه أبي عمرو بن العلاء . وكل أولئك من سمات الأصمعي ولوازمه - لا تكاد ترى هذا حتى يضطرب الاطمئنان وتلمح توسعاً لا يقبل بنفس الراحة التي تصفحنا بها الصفحات الأولى : ذلك أننا نعلم من ملاحظته الخاصة ما لا يتفق مع وجهة هذا الكتاب .

وهو عندما يروى عن أبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي ، ويونس بن حبيب - أو عن أعراب يقول رأيهم في المربد أو البادية - فإن هذا مما يزيد في طمأننتنا ، ولكن عندما نراه يروى عن أبي عبيدة فإن من حقنا أن نتوقف ، وأن نشك بل نرفض هذه الرواية بعد أن عرفنا رأى كل منهما في صاحبه ، ومثل هذا يقال عندما نراه يروى عن يروى

عن أبي عبيدة .

وفي الكتاب روايات عن بعض اللغويين الذين يتأخرون عن الأصمعي كأبي عبيد القاسم ابن سلام ؛ كما نجد روايات لابن الأعرابي وهو كوفي المنشأ والتلقي وفي طبقة تلامذة لأصمعي .

وثمة شيء آخر هو الإستهناد بآيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ، والأصمعي كما سبق أن أوضحنا كان يتوقف توقفاً تاماً أمام نصوص القرآن لا يفسرها ، ويتحرّج من تفسير الحديث ، لهذا كان شذوذاً لنهجه أن نرى في كتاب الأضداد إستهناداً بالقرآن والحديث .

وإذا أردنا أن نستخرج مادة الأصمعي ، وأن نشير إلى ما دخل الكتاب من استطراد أو زيادة ما خلص لنا هذا العمل إلا بمشقة وعلى جهة التغليب ، وفي الكتاب مواد بكاملها وبنصوصها وشرحها نخرج عن نهج الأصمعي . من ذلك مادة (ناء) التي جاءت على النحو التالي :

ناء - قال الأثرم : أخبرني أبو عبيدة قال : يقال : نؤت بالحمل : إذا نهضت مثقلاً ، وناعى الحمل : إذا أثقلت وغلبك ، وأنشدني ابن الأعرابي :

إني وجدك ما أفضى الغرم وإن حان القضاء وما رقت له كبدي
إلا عصا أرزن طارت برايتها تنوء ضربتها بالكف والعصـد
أى تثقل ضربتها الكف والعصـد . وشبيه بهذا البيت قوله تعالى : (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة)^(٥٦) أى تثقلهم .

ويصعب نسبة هذا الكلام للأصمعي ، والمادة تروى عن الأثرم عن أبي عبيدة ، واحتجاج لها بالقرآن الكريم .

وإذا وضعت كتاب ابن السكيت في الأضداد في مقارنة مع كتاب الأصمعي وجدت الكتابين يتشابهان . فالكتاب المنسوب للأصمعي يشتمل على خمس ومائة مادة جاء منها في كتاب ابن السكيت تسع وثمانون مادة بنصها تقريباً .

والرأى عندى أنه كان للأصمعي معرفة واسعة بالأضداد حملها عنه طلابه في مجالسه ، فلما جمعت في كتاب خالطت غيرها ، وكان ابن السكيت من أكثر العلماء عناية بنقل علم الأصمعي إلى بغداد ، فبقى الكتابان ينسب أحدهما للأصمعي لغلبة مادته فيه ، والآخر لابن

السكيت لما بذله من جهد في جمعه ، وإلا فهو نتيجة خلط الوزاقيين .

كتاب النوادر :

لم يصل إلينا كتاب الأصمعي في النوادر ، وكنت شديد الحرص على التعرف على منهج الأصمعي في هذا الكتاب ، وجاهدت في العثور على نقول أو نتف منه أو أخبار عنه ، وقد انتهيت في هذا إلى شيء قليل : من ذلك أنه عمل كتابه هذا ، وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، وأن أبا محمد اليزيدي عمل كتاباً على نمطه في النوادر^(٥٧) . وذكر الأزهري في مقدمة التهذيب أن هذا الكتاب تسرّب إلى خزائن آل طاهر ، وأدخل عليه زيادات كثيرة تزيد على ثلث الكتاب ، وكان ذلك في حياة الأصمعي ، قال :

(كان الأصمعي أملي ببغداد كتاباً في النوادر فزيد عليه ما ليس في كلامه ، فأخبرني أبو الفضل المنذرى عن سلمة قال : جاء أبو ربيعة صاحب عبد الله بن طاهر صديق أبي السمراء بكتاب النوادر المنسوب للأصمعي ، فوضعه بين يديه ، فجعل الأصمعي ينظر فيه ثم قال : ليس هذا كلامي كله ، وقد زيد عليّ فيه ، فإن أحببت أن أعلم ما أحفظ منه ، وأضرب على الباقي - فعلت وإلا فلا تقرأه ؛ فأعلم الأصمعي على ما أنكر من الكتاب ، وهو أرجح من الثلث ، ثم أمرنا فتسخناه له)^(٥٨) .

ويبدو أن كتاب الأصمعي كان يخالف غيره بأشياء كان ينفرد بروايتها ، وهذا ما أعطاه المتزلة التي تحدثوا عنها ، وجاء رجل كاليزيدي ليعمل على شاكلته . ولقد كتب الأصمعي كتابه هذا في بغداد وقد جاوز الخمسين من عمره ، وبعد أن اكتملت له مقوماته وأصبح في الصورة الناضجة التي لحناها في بلاط الرشيد ؛ كما نرجح أنه رضى عن كتابه واعتز به ووجده أمثل كتبه ، فأهداه لجعفر بن يحيى البرمكي كعمل نفيس .

الأصمعيات :

هي المختارات الشعرية التي جمعها الأصمعي ونسبت إليه ، نشرها المستشرق وليم الوردت في ليزج سنة ١٩٠٢ ضمن الجزء الأول من مجموع أشعار العرب ، ولم يقم أحد بنشرها - فيما

(٥٧) تزمة الألبا ١٠٥ .

(٥٨) مقدمة كتاب التهذيب للأزهري .

أعلم - حتى سنة ١٩٥٥ م حين أعاد نشرها الأستاذان أحمد شاکر ، وعبد السلام هارون ،
وبينا في مقدمة البحث ما تعرض له هذا المستشرق من الخلط والتصرف .

والذين أشاروا إلى مؤلفات الأصمعي لم يذكروا هذه المختارات باسمها المتعارف عليه الآن
(الأصمعيات) : فابن النديم يقول : إن الأصمعي عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست
بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها ، ولكن المختارات التي بأيدينا تكاد تكون من
العين الذي صدرت عنه المفضليات ، وهناك شعراء شاركوا في المجموعتين كسنان بن أبي
الحارثة ، وزبان بن سيار ، وعامر بن الطفيل ، والجميح الأسدي ، وحاجب بن حبيب
الأسدي ، وسبيع بن الخطيم ، وربيع بن مقروم ، وعبد الله بن عنمة الضبي ، وعبد قيس بن
خفاف ، وأوس بن غلفاء الهجيمي ، وعوف بن عطية التيمي ، وتأبط شرا وغيرهم . شارك
بعضهم بالقصائد نفسها أو بأجزاء ومقطعات ، وبعض الشعراء قصائد في المفضليات وأخرى
في الأصمعيات ، وهذا ما جعلنا نتشكك في رأى ابن النديم عندما وصفها بقلة الغريب ،
والقصر ، وعدم رضا العلماء عنها :

أما القصر فالأصمعيات تشمل القصير الذي يتحدد بالبيتين والأبيات ، والطويل الذي
تجاوز الأربعين بيتاً .

وأما اختصار روايتها فإننا نلاحظ أن الرواية الأدبية ، واللغوية المسندة تكاد تنتهى عند
الطبقة التي يتسمى إليها الأصمعي ، ومع هذا فهو تارة يقول : سمعنا من أبي عمرو ، وحسبك
بشيخ الرواة ثقة وأمانة ، وطورا يذكر أنه سمعها من قائلها مباشرة ، ومرة ثالثة يقول : سمعنا
من أحد الأعراب ، وهذا منتهى الطلب في الإسناد في الرواية .

أما بروكلمان - فالظاهر أنه راجع الأصمعيات وهو متأثر برأى ابن النديم فعلق عليها
بقوله : (وقيل إن الأصمعيات لم تلق ما لقيته المفضليات وغيرها من الانتشار والقبول ؛ لأنها
أقل اشتمالاً على غريب العربية ، ولأن الأصمعي عمد فيها إلى اختصار الرواية) ، وهذا قريب
جداً من كلام ابن النديم .

وحاول بروكلمان التعليل لرأيه فقال : (إن المفضليات والقصائد التي اختارها حماد الراوية
وسماها السموط أو المعلقات قد استزفت هاتان المجموعتان أهم محصول القصائد التي لم تدون
في دواوين الشعراء الكبار حتى إن الأصمعي لم يجد إلا نخبة متواضعة من القصائد حين أراد
جمع اختياراته) ، وأعطى مثلاً لذلك بمخطوط فينا الذي يشتمل على المفضليات

والأصمعيات ، ورأى أن الأخيرة لم تشتمل إلا على اثنتين وسبعين قصيدة ، ومجموع أبياتها ١١٦٣ وعدد شعرائها واحد وستون شاعراً لم يسم منهم ثلاثة ، وهذا تعليل لا يعطى النتيجة التي يذهب إليها بروكلمان من أن معين الشعر قد نصب أمام الأصمعي ، وهو الذي كان يحفظ الآلاف من القصائد قبل أن يبلغ الحلم !

وتشابه الأصمعيات مع المفضليات لا يرجع إلى أنها وجدت في مجلد واحد ، ولكن هذا التشابه يعود إلى طريقة رواية المفضليات : يقول أبو الطيب اللغوى في كتابه مراتب النحويين : إن المفضليات كانت ثمانين قصيدة ، فلما قرئت على الأصمعي صارت مائة وعشرين ، وربما تساءلنا عن سبب قراءتها على الأصمعي وصاحبها بها أولى ونجد الإجابة فيما تمدنا به الأخبار من أن المفضل لا يدعى لنفسه جمع المفضليات ، ولكنه يقول فيما يحكيه العباس بن بكار قال : قلت للضى : ما أحسن اختيارك للأشعار فلو زدتنا من اختيارك فقال : والله ما هذا الاختيار لى ، ولكن إبراهيم بن عبد الله استر عندي ، فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار فيأنس ويحدثني ، ثم عرض لى خروج إلى ضيعتي أياماً فقال لى : اجعل كتبك عندي : لأستريح إلى النظر فيها ، فركت عنده قطرين فيها أشعار وأخبار ، فلما عدت وجدته قد علم على هذه الأشعار ، وكان أحفظ الناس للشعر فجمعه وأخرجته ، فقال الناس : اختيار المفضل (٥٩) .

ولو سلمنا للمفضل بمهمة الجمع على وجه من الوجوه وجدنا خبراً آخر يرويه أبو الطيب اللغوى عن المفضل يقول فيه : (إني لا أحسن شيئاً من الغريب ولا من المعاني ولا تفسير الشعر) فهل كان المفضل كذلك ؟ أنا في شك من هذا : فقد كان المفضل على رأس علماء الكوفة - عالماً بالأخبار والشعر ، وأعلم من ورد على البصرة من رجال الكوفة ، كما يحكى محمد بن سلام الجمحي (٦٠) ، وله غير المفضليات كتاب في الأمثال ، وكتاب في معاني الشعر ، وكتاب في الألفاظ ، وكتاب في العروض ، ولكن السبب الذي من أجله قرئت المفضليات على الأصمعي أنه كان من تمام العالم أن يقرأ على أكثر من أستاذ . ومن جهة أخرى كان الناس يرجفون بعلم البصرة عامة والأصمعي خاصة ، فكان من المعقول أن تقرأ المفضليات على الأصمعي وأن يطرأ عليها التفسير والزيادة نتيجة لما يأتي به التفسير والشروح من

(٥٩) الزهر ٢ : ٣١٩ ط الحلبي

(٦٠) طبقات فحول الشعراء ٢١ .

جديد ، وأن تدخل عند الأصمعي ثمانين قصيدة فتخرج من عنده مائة وعشرين وأن يختلط الأمر بعد ذلك بين ما هو للأصمعي وما هو للمفضل .

• • •

هذا الذى عرفنا به من كتب الأصمعي قليل من كثير ، وهو يشير إلى ذلك بقوله : لما خرجت مع الرشيد إلى الرقة قال لى : هل حملت معك شيئاً من كتبك ؟ قلت : نعم ، حملت ما خف حملته ، فقال : كم ؟ قلت : ثمانية عشر صندوقاً ، فقال : هذا لما خفت ، فلو ثقلت كم كنت تحمل ؟ فقلت : أضعافها ، فجعل يعجب^(٦١) .

ولا شك أن الأحداث التى مرت بالدولة العربية كالغزو المغول ، وصعوبة النسخ ، وضمن المؤلفين بإخراج كتبهم للتداول - كل أولئك قد أسهم في حرماننا من كثير من الكتب ، ونرجح أن كتب الأصمعي التى كان يحمل منها ثمانية عشر صندوقاً إذا خُفِّف قد تعرضت لما تعرضت له بقية الكتب العربية بعد الغزو التتارى ، وكان أكثرها عرضة للضياع تلك الكراسات والكتب الصغيرة التى تحتوى على رسائل كرسائل الأصمعي : لقد بقى كتاب الحيوان للجاحظ ، وكذلك البخلاء ، والبيان والتبيين وغير ذلك من الكتب الكبيرة ، أما رسائل الجاحظ فلم يبق منها هى الأخرى إلا القليل ، وأكثر ما بقى كان مَدُوناً في مجاميع ، وكذلك وصلنا من مؤلفات ابن قتيبة - أدب الكاتب . وكتاب غريب القرآن والحديث . وتأويل مشكل القرآن . وكتاب المعارف وغير ذلك من كتبه الكبيرة - أما كراساتة فقد ضاع أغلبها . وكثير من النحاة كتبوا قبل سيبويه . ولكن هذه الجهود كانت في كراريس فضاعت أيضاً . وبقى كتاب سيبويه . وكان أقدم ما وصلنا من كتب النحو .

ولقد دلت التجربة التاريخية على أنه في الوقت الذى لم تكن فيه مطابع ، وأن العمل كان متروكاً للوراقين والنساخين - كان عملاؤهم يطلبون منهم أمهات الكتب ، والمراجع الكبيرة التى اشتهرت بمادة العلم الذى يبحثون عنه ، وكان فيها الغناء عن غيرها : فكان المهتمون باللغة مثلاً يفضلون البدء باستنساخ كتاب العين أو الجمهرة - على الجرى وراء كراسات في النخل أو الإبل أو ما شاكل ذلك ؛ كذلك الذين يحتفظون بمكتبات كبيرة يعتمدون إلى إهمال الكتب الصغيرة والكراسات إذا وجدوا غناء عنها في مجلد كبير ، وهذا الصاحب بن عباد كان

(٦١) الأغاني ٥ : ٦٤ ، وإنباء الرواة ١ : ٢١٧ ، ومعجم الأدباء ٦ : ٨ ترجمة إسحق الموصلي .

يستصحب معه ثلاثين جملاً محملة بكتب الأدب ، فلما وصل إليه كتاب الأغاني اكتفى به عن غيره .

ومن ناحية أخرى كان كثير من المؤلفين يحرصون على كتبهم ، ولا يسمحون بنسخها حتى يضمنوا صحة النص المنسوب إليهم ، إلى جانب ما يشدونه من كسب مادي . وكان من حق الذي يقتنى نسخة من كتاب ثمين ألا يفرط أو يتساهل في إقراضه أو بيعه إلا تحت ظروف قاسية : فلقد كان لأي على القالي نسخة من الجمهرة بخط ابن دريد . وكان قد أعطى بها ثلثائة مثقال ، فلما اشتدت به الحاجة باعها بأربعين مثقالاً ، وكتب عليها :

أنست بها عشرين عاماً وبعثتها وقد طال وجدى بعدها وحنيتي
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لعجز وافتقار وصيبة صغار عليهم تُستهل شوقي
فقلت ولم أملك سوابق عبرتي مقالة مكوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بين ضنين
أما أبو عمرو بن العلاء . الذي كانت مؤلفاته تملأ بيتاً قريباً من السقف - فإنه أحرقها مخافة أن يكون فيها غير الصحيح .

كذلك نجد من أسباب ضياع معظم كتب الأصمعي أنها لا تشابه كتباً ككتب الجاحظ التي كتبت ، وألفت لأكثر من الخاصة ، فتعدد لذلك طلابها وحرصوا عليها أو استنسخوها ، أما كتب الأصمعي ففضلاً عن أنها رسائل صغيرة فقد كانت للخاصة من الباحثين في اللغة ، ومن نوع يرتبط بالعلم البحث الذي لا يستهوى عامة الناس اقتناؤه .